الأولاد والحياة الكنسيّة

المتقدّم في الكهنة الأب ألكسندر (شميمن)

كقاعدةٍ عامّة، يحبُّ الأولاد الذهاب إلى الكنيسة؛ وهذا الانجذابُ الفطريُّ نحو الخِدَم الكنسيَّة والاهتمامُ بها هو الأساس الذي يجب أن نبني عليه تربيَتنا الدِّينية. عندما يقلق الآباء من أنَّ الأولاد سيتعبون من الخِدَم الطويلة، ويشفقون عليهم، فإنَّهم عادةً ما يُعبِّرون لاشعوريًّا عن قلقهم لا على أولادهم بل على أنفسهم. فالأولاد ينخرطون في عالم الطقوس والرموز الليتورجيَّة بسهولةٍ أكبر من الراشدين، لأنّهم يشعرون بجوِّ خِدَمِ كنيستنا ويُقدِّرونه. يدرك الأولاد أكثر منّا اختبار القداسة، وإحساسَ اللقاءِ بكائنٍ يتجاوز الحياة اليوميَّة، وذاك السرَّ الرهيب (mysterium tremendum) الذي هو لبُّ خدمنا الكنسيَّة. "إن لم ترجِعوا وتصيروا مثل الأولاد"، تنطبق هذه الكلمات على التلقّي، وانفتاح الذهن، والعفويّة التي نفقدها عندما نتجاوز مرحلة الطفولة. كم من الناس كرَّسوا حياتهم لخدمة الله ونذروا أنفسهم للكنيسة لأنَّهم منذ الطفولة حافظوا على محبَّتهم لبيت العبادة وفرح الخبرة الليتورجيَّة! لذلك، أوّل واجبٍ يقع على عاتق الأهل والمُربِّين هو أن يدَعوا الأولاد ولا يمنعوهم (راجع متّى 19: 14) من الحضور إلى الكنيسة، لأنّه ينبغي للأولاد أن يسمعوا كلمة الله في الكنيسة قبل أيِّ مكانٍ آخر. فالكلمة تكون صعبة الفهم في الصفِّ الدراسيّ لأنّها تبقى كلمةً مجرّدة؛ أمّا في الكنيسة، فهي تكون في بيئتها. في مرحلة الطفولة، نملك القدرة على أن نفهم، لا فكريًّا بل بكامل كياننا، أنَّه لا يوجد فرحٌ على الأرض أعظم من أن نكون في الكنيسة، ونستطيع أن نشارك في خِدَمِ الكنيسة، وأن نستنشق عطر ملكوت السموات الذي هو "فرحٌ وسلامٌ في الروح القدس".

منذ أيّام الطفولة الأولى، يجب أن يترافق الحضور إلى الكنيسة مع أجواءٍ منزليَّةٍ تُمهِّد لجوِّ الكنيسة وتكون امتدادًا واستمرارًا له. فلنأخذ صبيحة الأحد مثالًا: كيف يمكن للولد أن يشعر بقداسة ذلك الصباح وما سيراه في الكنيسة إذا كان المنزل يضجُّ بصوت الراديو والتلفاز، والوالدان يدخِّنان ويطالعان الصُّحُف، ويسود عمومًا جوٌّ دنيويّ؟ لا بدَّ من أن يسبق الذهابَ إلى الكنيسة إحساسٌ بالتركيز الداخليّ، ونوعٌ من الهدوء والتوقير. إنّ إشعال القناديل أمام الأيقونات، وقراءة فصولٍ من الكتاب المقدّس، وارتداء ثيابٍ نظيفة ومرتّبة، وترتيب الغرف بشكلٍ احتفاليّ، هي جميعُها تفاصيل لا يدرك الأهل غالبًا أنّها تُشكِّل الوعي الدينيّ للولد، وتترك في نفسه

بصمةً لن تمحوها المِحَنُ لاحقًا. في عشيَّة وصبيحة أيّام الآحاد والأعياد الكنسيّة، وخلال الصَّوم، وفي الأيّام التي نستعدُّ فيها للاعتراف والمناولة، ينبغي للمنزل أن يعكس روح الكنيسة، وأن يستنير بالنور الذي نحمله معنا من العبادة.

والآن فلنتحدَّث عن المدرسة. يبدو لي جليًّا أنَّ تنظيم ما يُدعى بـ"مدارس الأحد" في وقت إقامة القدّاس الإلهيّ يتناقض بشكلٍ جوهريّ مع روح الأرثوذكسيّة. فقدَّاس الأحد هو اجتماعٌ مُبهِجٌ لجماعة الكنيسة، ويجب أن يعرف الولد ذلك ويختبره لفترةٍ طويلة، قبل أن يتمكَّن من فهم المعنى العميق لهذا الاجتماع. يبدو لي أنَّ اختيار يوم الأحد لمدرسةِ الكنيسة ليس خيارًا موفَّقًا. يوم الأحد هو يومٌ ليتورجيٌّ أوّلًا وقبل كلِّ شيء، ويجب أن يتمحور حول الكنيسة والقدّاس الإلهيّ. من الأفضل بكثير أن تُقام اجتماعات مدرسة الكنيسة يوم السبت قبل السهرانيّة أو خدمة الغروب. أمَّا التذرُّع بأنَّ الأهل لا يستطيعون أن يُحضِروا أولادهم إلى الكنيسة مرّتين في الأسبوع، أو لن يقوموا بذلك، فما هو إلَّا اعترافٌ بالتراخي والإهمال الأثيم لما هو مهمٌّ لأولادنا. عشيَّة السبت هي بداية الأحد، ويجب أن تتقدَّس ليتورجيًّا تمامًا كصبيحة الأحد. لماذا تُقام في جميع الكنائس الأرثوذكسيَّة في العالم خدمة الغروب أو السهرانيّة عشيّة الأعياد والآحاد؟ لا يوجد ما يمنعنا من ترتيب حياتنا الكنسيّة وفقًا لمبدأ: مدرسة - صلاة غروب - قدّاس، بحيث تكون المدرسة، بالنسبة إلى الأولاد، هي الإعداد والمقدّمة الأساسيّة ليومِ الربِّ، يوم قيامته.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Protopresbyter Alexander Schmemann (n.d.). “Children and Church”. Schmemann.org.